

تسييح الروح

أنظر، وأجلو مرآتي...

وأنا أنظر يا قمري. وأجلو مرآتي. ليظهر فيها بديراً. تتطفيء أناي وأنايتي. ويبقى من نوره ما يوقظني على حسن وجهه. من له المشرق والمغرب لا يبخل أن يرنو نحوي إذا ما أغمضت على حسن الوجه عيوني، وارتجفت في أعماقي المرأة المجلوة كأنني أبصر في بحيرة نفسي، والماء الصافي، يندفع حولي، وأنا الضمآن.

ما بي عطش البلبل للوردة والفجر لشمس نهار يسطع في كل جهات القلب، حتى حين لمست مع النور، صلاة النور، خرجت من أنغام الوردة ما يجعل هذا البلبل يصدح مسكوناً، للمسرات العشق كان هواء الراعي، يلف براري الذات، فتعلو في سمي الأتوان إلى الخالق، يا هذا العشق، ما أصبر من رجل يمد ذراعيه، ومهما رفعت ذراعيك، هل تبلغ عشق المعبود.

أعطاني ثوب الدراويش، وأمعن في جذبي إلى لهب القرب فأسلمت، كأن سراج الصبح، وكأني الروح تفلت من جسدي، لا أطلع من هذا الفقص، ولا من مادته، حتى أعلن ما كنت تذوقته في سؤال "ألست" لو أن كنوز الأرض، أعطت لي، أنا الدراويش والمسكين لأبيع "ألست" لما بعث.

يقترب شفيعي، ويسكن في أدميتي، كما يسكن هذين النفس زفير العاشق، وشهيق العاشق، وأقول لإمام كياني إ جذبني، نحو الفوق، وإ جذبني أكثر. وإذا رأيت الحسن تبعته الحسن، وإذا ما صعب طريقي استعنت بدعائي لا يهمني، وأترك برجائي عنه رجائي، ويطيب...

فأخاب دعائي من كان شفيعه في الدرب المعشوق الأول إهلك كيانه ويخيب...
كلماتي جرعة لغتي.

لكن حين استعنت بها، عافنتي، من أين أصطحب الكلمات الأخرى إليه، لا أعرف من أين ولكن هل في محادثته ما يأتي في النوم وفي اليقظة، فمع كل السككات الحركات وفي الصمت. في الأشياء المكشوفة والأشياء المسكونة بالستر، وفي نفس الأمر، كلماتي جرعة لغتي، وأنا في هذا الفقر لا أبلغ مرمائي. حتى يصل الواصل، يدرك أن تصبح كلمات المعشوق جرعة لغة العاشق.

وأنا أنظر يا قمري. تلمع في سماء المرأة حروف الأسماء، فأجلو مرآتي لأبصر وهو يبصرني أين رحى وكيف نطقته؟ ويبصرني لو أنني سكنت، وصممت، وفي هذا العالم من كون الرؤيا لا رؤية لي، إلا ما حملت أناي وأنايتي من تعب أعمق وأبذلها، أرميها في أروقة الرحلة، لا زاد لسواه، ولا درب إليه إلاه. وهو هو حتى تغيب اللغة الأفقر من درويش، والأكثر من ذلك الرند، ولا يبقى في فضاء الذات من الذات شيئاً لتدرك أو تعشق حتى تقنى...

د. طراد حمادة